مظاهر التقليد والتجديد في شعر ابن خفاجة

محمد سيف الإسلام بوفلاقة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار- عنابة، Saad_alandaloussi@hotmail.com

تاريخ الإيداع: 2014/07/06 **تاريخ المراجعة:** 2016/12/21 **تاريخ القبول:** 2017/10/09

ملخص

موضوع هذا البحث هو «شعر الطبيعة في الأندلس بين التقليد والتجديد - ابن خفاجة نموذجاً»، وسيتناول شعر ابن خفاجة الأندلسي الذي لُقّب بشاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس، وبصنوبري الأندلس بالدراسة والتحليل. ويهدف البحث إلى إبراز الأثر المشرقي في شعره، أي مظاهر التقليد، كما يُسلط الضوء على مظاهر التجديد في شعره من خلال نماذج شعرية مختارة. ويتوقف أيضاً عند ظاهرة التقليد والتجديد في الشعر الأندلسي بعامة، كما يتطرق إلى شعرية ابن خفاجة.

***كلمات المفاتيح:** شعر طبيعة، شعر أندلسي، ابن خفاجة.*

Aspects du Mimétisme et du Modernisme dans la Poésie d’Ibn Khafadje

Résumé

L’objet de cette étude est l’analyse des aspects de l’imitation et de l’innovation dans la poésie d’Ibn Khafadje. Nous allons aborder la poésie d’Ibn Khafadje, surnommé le grand poète de la nature en Andalousie. Cette étude vise d’une part, à traiter le phénomène de l’imitation et de l’innovation dans la poésie andalouse en général, et d’autre part, mettre en relief l’impact du Moyen Orient dans la poésie d’Ibn Khafadje en nous appuyant sur quelques extraits choisis.

Mots-clés: Poésie de la nature, poésie de l’andalousie, Ibn Khafadje*.*

Aspects of Mimicry and Modernism in Ibn Khafadje Poetry

Abstract

This research focuses on aspects of imitation and innovation in Ibn Khafadje poems that was named “the greatest poet of nature in Andalusia” and “the Sanawbari of Andalusia”. It aims to highlight the effect of the Middle East in his poetry, i.e. the aspects of imitation. It also sheds light on aspects of innovation through a collection of selected pieces. In addition, the research deals with tradition and modernization phenomena in Andalusia poetry in general and with metric in Ibn Khafadje poems.

Key words**: **Poetry ofnature, poetry of andalusia, Ibn Khafadje.

المؤلف المرسل: محمد سيف الإسلام بوفلاقة، Saad_alandaloussi@hotmail.com

مقدمـــة

قاد الوضع الإشكالي للشعر الأندلسي في توزعه بين التقليد والتجديد إلى بروز جملة من الرؤى والأفكار التي تتصل بتوصيف ظاهرة الانتماء في الشعر الأندلسي، فهناك من يرى أن الشعر الأندلسي بوجه عام«مر بأطوار ثلاثة:الطور الأول، وهو يمثل شعر التقليد لأدب المشرق، ويبدأ منذ فجر عصر الأمويين في الأندلس حتى القرن الخامس الهجري، ومن شعرائه ابن عبد ربه وابن هانئ وابن شهيد وابن دراج القسطلي وغيرهم. والطور الثاني، وهو الحقبة التي امتدت خلال القرن الخامس، وفيها أخذ الشعراء يصدرون عن حاضرهم ويمثلون بيئتهم ومظاهرها والنفس ومشاعرها مع الأخذ بحظ من التقليد، ويمثل هذا الطور ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد والأعمى التطيلي ومن إليهم من شعراء ملوك الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئة إلى معاني الشعراء السابقين، وفي نهاية هذا القرن تم انتصار الجديد واتسعت حركة الموشحات. أما الطور الثالث فيضم شعراء القرن السادس وما بعده وفيه أخذ الشعراء يمثلون البيئة وتجتمع لهم الحداثة والجدة، ويمثل هذا الطور من الشعراء ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم»(1).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن شعراء الأندلس آثروا أن يعيشوا في أجواء المحافظة، واجتهدوا في الالتصاق بالموضوعات التقليدية، فهم قد حلوا بأجسادهم عن الشرق، ولكن تراث أمتهم بقي ماثلاً في شغاف قلوبهم، يشدهم إليه رصيد عاطفي وثقافي لا يحد،وهكذا فقد كان من الطبيعي أن يصدر الأندلسيون في موطنهم القصي أدباً مشابهاً لأدب أرومتهم في المشرق، أي أنه أدب يتسم بطابع المحافظة ويعبق بسمات الأصالة، فقد«كانوا يعيشون في تلك الجزيرة وعيونهم شاخصة إلى المشرق حيث ثقافتهم الإسلامية الأصيلة ومنبع لغتهم العربية العريقة، ومصدر تقاليدهم الفنية الراسخة، ولم يكن ليغيب عنهم قط أنهم هنا الفرع وأن هناك الأصل، ولهذا كانوا يحسون بما كان يحس به كل فرع من نزوع نحو أصله، هذا الطابع الذي تجلى في حياة العرب في الأندلس، وانعكس جلياً في شعرهم، ونعني به روح المحافظة والنزوع إلى الأصالة إنما كان على أشده في إبان عهود العرب الأولى في الأندلس، وبخاصة في مرحلة الفتح وما تلاها من التواجد العربي في تلك الربوع الغربية،حين كان كل شيء في نفس الأندلسي يجعله يلتفت إلى ماضيه الذي غيبه وأرضه التي طواها، على حين كانت نفسه لا تزال تستعصي على الالتحام في البيئة الجديدة، وتقاوم الذوبان في ظل مؤثراتها ومنازع حياتها.

ومن هنا كانت النماذج الأدبية الأولى - شعرية ونثرية - تنسج على منوال الأدب المشرقي وتستمد عناصرها من نسغه وتنطوي على نكهته، وكثيراً ما كان أدباء الأندلس يلقبون بألقاب المشارقة، ويعرف الواحد منهم باسم أحد أعلام الأدب في المشرق، وهكذا عرف أبو الخطار حسام بن ضرار بـ (عنترة الأندلس)، وعرف ابن زيدون بـ (بحتري المغرب) وابن هانئ بـ(متنبي المغرب)، وابن خفاجة (بصنوبري الأندلس)، وكان ميل شعراء الأندلس في هذه المرحلة واضحاً نحو لقاء فحول شعراء المشرق والاستماع إليهم والتحاور معهم، وقد سنحت هذه الفرصة لبعضهم مثل الشاعر عباس بن ناصح الذي لقي أبا نواس، والشاعر يحيى الغزال الذي لقي رهطاً آخر من أدباء بغداد، بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى إطلاق أسماء المدن والأماكن المشرقية على حواضر الأندلس ومرابعها، فتسمت اشبيلية بحمص، كما ابتنى الداخل قصراً له وحدائق، مطلقاً عليها اسم الرصافة على غرار رصافة دمشق.

وما كان لمثل هذا الحال أن يدوم مع دوام بقاء العرب في الأندلس واستقرارهم فيها، ثم ما نجم عن ذلك من امتزاج بأهلها وتطبعهم بمناحي الحياة بمؤثرات البيئة فيها. ولم يكن ثمة بد، تحت وطأة السنين وتوالي الأجيال أن تحول الأمور، وتتبدل المنازع، وتتأقلم النفوس، وهكذا أخذت الوشائج تضعف بعد حين تجاه الأرومة القديمة لتتفتح

في مقابلها خصائص مستحدثة أخذت تتنامى يوماً بعد يوم في ظل الحياة الحديثة وتحت تأثير البيئة الجديدة، وهكذا تفتحت ملامح شخصية طريفة في الأندلس، لا هي بالعربية المعهودة ولا هي بالأعجمية السالفة، إنها الشخصية الأندلسية التي حافظت على مقومات الأصالة واستجابت في الوقت نفسه إلى دواعي التجديد. وذلك ما أدى بعد حين إلى ظهور نماذج أدبية تتسم بالطرافة والابتكار، حتى بلغ ذلك ذروته في ظهور فن الموشحات.

ومع ذلك ظل التياران، تيار التقليد وتيار التجديد، يتعايشان معاً لأنهما كانا يلبيان حاجات غلابة في نفس العربي الأندلسي»[2].

أولاً: مظاهر التقليد في شعر ابن خفاجة: Tout d'abord، les manifestations de la tradition dans le fils de cheveux Khafadje:

دأب الدارسون على تقسيم شعر ابن خفاجة إلى قسمين:

«**1-** إنتاجه في عصر الطوائف وهو إنتاج يتسم بالتغني بالطبيعة والحب، ويمثل المرحلة الأولى من حياته، ويظهر على مقطوعاته الشعرية هنا الاختصار، ليس ذلك لقصر نفس الشاعر، وإنما يعزى إلى عدم تكلفه وانطلاقه من سجيته وحدها.

2- إنتاجه في عصر المرابطين: عندما أصبح ابن خفاجة في عهد المرابطين شاعر بلاط كثر في شعره المدح بجانب بعض القصائد في الرثاء.

ويصادف المتأمل في شعر ابن خفاجة ضربين أسلوبيين، وُجدا جنباً إلى جنب عبر المرحلتين السابقتين، فهو بين محافظة وتقليد للقصائد العربية النموذجية من جهة، وتجديد وذاتية يعبر فيها عن شخصيته ورؤيته من جهة أخرى، فعبر صفحات من ديوانه تتمثل قصيدة مشرقية في الصور والأساليب وفي تقسيم القصيدة إلى مقدمة، يتخلص منها إلى الغرض الرئيس، فالمدح عنده مثلاً لا يبتعد عن مدح أي شاعر مشرقي لأميره، يبدأ بمقدمة غزلية (وإن استبدل بها أحياناً مقدمة في وصف الطبيعة)، ثم يتخلص إلى مدح فيغدق على الممدوح الصفات المعروفة ذاتها.

ولم يكن وراء هذا التقليد لأسلوب القصيدة العربية المشرقية دافع تلبية ذوق الممدوح واستمالته ليعجب بالشعر ويكافئ عليه، فابن خفاجة لم يكن شاعراً مرتزقاً بل كان الإعجاب بالمشارقة ومحبة شعرهم هاجسه في ذلك، فكأن تمثله لقصائدهم من باب التقدير والاحترام.

ومن جانب آخر، كان التجديد لا ينكر عن ابن خفاجة،الذي حفل أسلوبه بالتصوير، تصوير الطبيعة الغنية حوله، فكأني بابن خفاجة مصوراً محترفاً تلتقط عدسته صغائر البيئة ودقائقها، وتحيلها إلى لغة بارعة الصور والبيان، ويلفت النظر عنده لطائف أبدع التقاطها وتقديمها في ثوب تصويري حسن.

وإذا كان الوصف غرضاً مألوفاً، فإن وجه التجديد عند ابن خفاجة يكمن في تخصيصه»[3].

وبالنسبة إلى طريقته ومنهجه في كتابة الشعر ينبه الكثير من الدارسين إلى أن ابن خفاجة كان «على طريقة من سبقوه، يحتذي حذوهم، ويقلد فنهم، ويستكثر من البديع، فيطابق، ويجانس، ويستعير، ويلتزم في مطولاته عمود الشعر، وشعره يتوزع بين أغراض عديدة، مديح ورثاء، وغزل ومجون، وهي أغراض تقليدية قال فيها الشعراء، وقال هو أيضاً، دون أن يزيد عليها شيئاً، بل انقص منها، فنحن لا نجد له سخراً ولا هجاءً، ولا فخراً، ومتى علمنا طبيعة الرجل أدركنا أنه لم يكن يحسن هذه الفنون من القول، أما أغراضه في مقطوعاته التي وصف بها الطبيعة، فهي صادرة عن نفس تحب التبذل، والعزلة، والهرب من واجبات الحياة، هذه الأمور التي لم يكن ينالها إلا في الالتجاء إلى أكناف الطبيعة، وعلى شواطئ غدرانها، وقد يكون ابن خفاجة أراد أن يتفرد بوصف الطبيعة عن بقية الشعراء،

حين وجدها في عزلته مجاورة مجلسه، قريبة من نفسه، مستنيراً بالبحتري، وابن الرومي، والصنوبري، وقد يكون لاقى بعض الإعجاب من معاصريه، وهو يستكثر من المحسنات اللفظية، ويأتي بها في أثواب جديدة»[(4)].

إن أول قضية طرحها ابن خفاجة في خطبة ديوانه بعد ديباجة التحميد والصلاة والتسليم على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، تتصل بالمكونات الثقافية للشاعر، فقد بدأ كتابة الشعر في سن مبكرة (والشباب يرف غضارة ويخف بي غرارة)، ولاشك في أن عملية الإبداع لا تقترن بسن معينة للإنسان، بيد أن توزيعها يكون مركزاً في سن مبكرة نسبياً، كما تشير إلى ذلك الكثير من الدراسات الحديثة «ويصارحنا ابن خفاجة بأسماء الشعراء الذين تصفح أشعارهم وحذا حذوهم وأخذ مأخذهم، الشريف الرضي، ومهيار الديلمي، وعبد المحسن الصوري، فتملكه من محاسن أشعارهم الرائعة، وألفاظهم الشائقة ما ينسجم مع برد الشباب، فمال إليهم ميلاً شديداً، وصار يروم التشبه بهم، فهل عنى حقاً ما يقول؟ وإلى أي مدى استحوذ هذا الإعجاب على الشاعر؟ لقد تمكن هؤلاء الثلاثة من الشاعر تمكناً كبيراً بعد أن نالوا نصيباً من إعجابه، ونجد في الديوان إشارات واضحة إلى ذلك فتابع الصوري متشبهاً به، محتذياً طريقته في تسع مقطعات وقصائد، وأشار إلى متابعة الشريف الرضي في قطعة واحدة، ومهيار الديلمي في قصيدتين، كذلك صرح في موضوع تال باحتذائه المتنبي في لف الغزل بالحماسة في أربع مقطعات، وراق له في موضع آخر النظر إلى بيت المتنبي فاحتذاه معارضاً، ونلاحظه يسلك مسلك ابن الرومي في موضوع ذم الورد، في مقطعة من بيتين، وهو في ذلك مواكب لأثر أبيات ابن الرومي التي تركت صدى بعيداً لدى شعراء الأندلس، وعكس هذا الصدى الحميري في كتابه(البديع)، ويصرح في أشعاره بأنه يتخذ كبار الشعراء، ومشهور الأدباء مثلاً أعلى له.

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن خفاجة انفرد في تأثره بالصوري في بناء القصيدة على الجناس الناقص، وأنه أول شاعر أندلسي يقتفي خطوات الرضي والديلمي في الإشارات إلى الأماكن النجدية والحجازية، وأول من أدرك منهم طريقة المتنبي في لف الغزل بالحماسة، ولم تقتصر ثقافة الشاعر الشعرية على هؤلاء النفر الثلاثة، إذ نجد في ثنايا الديوان والرسائل مضمنات لأشعار عدد من شعراء العرب، أمثال قيس بن الخطيم، ويزيد بن الطثرية، ومجنون ليلى، وابن الدمينة، وأبي تمام، وأبي نواس، والفرزدق وآخرين، وله معارضات لعدد من الشعراء منهم ابن صارة الأندلسي، وابن الصائغ، وابن رشيق»[(5)].

ومن مظاهر التقليد في شعر ابن خفاجة أنه يتغنى بقدرته على خوض الغمرات لاقتحام الخدور، فظلال عمر بن أبي ربيعة تتضح في الكثير من أشعاره، من بينها قوله:

لقد جُبْتُ دون الحيَّ كل ثنية　　　يحُومُ بها نسرُ السماء على وكرِ

وخضتُ ظلام الليل يسودُ فحمةً　　　ودُستُ عرين اللَّيث ينظرُ عن جَمْرِ

وجئتُ ديارَ الحيِّ واللَّيل مطرقٌ　　　منمنمُ ثوبِ الأفقِ بالأنجُم الزهر

ووصف اقتحام الخدر لا يقتصر على مجموعة من المعاني السطحية في الشعر الأندلسي، فقد تلفي في بعض الأحيان الشاعر الأندلسي يتجاوز الأهوال، وهذا يدل على أنه لا يقتصر فقط على لقاء المحبوبة، وتخطي الصعاب من أجلها، بل يتجاوز هذا الأمر إلى «معنى قدرته على تخطي صعاب الحياة، ومواجهته كل ما فيها من أهوال، ليصل إلى هوى النفس ومناها، فأمر الشعر لا يُفسر - في معظمه - على الوجه الظاهر فقط، ولا يعني الشاعر بتصوير اقتحام الخدر انتهاك الحرمات والأعراف، ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن إلحاح بعض الشعراء أحياناً على تصوير مغامراتهم، وتصوير ما يتعرضون له من أخطار في سبيل الوصول لم يكن في معظمه إلا انطلاقاً

من افتخاره بضروب شجاعتهم، وفتوتهم، واعتزازهم بعنفوان شبابهم، أكثر منه تعبيراً عن الخروج عن العفة، وخرق الأعراف، وهتك الحرمات»[(6)].

وبالنسبة إلى الرثاء والمدح في شعره فقد كان ابن خفاجة يقول الشعر في مختلف المناسبات، ويُطلق عليه البعض اسم شاعر المناسبات، حيث يقول أحدهم في هذا الصدد: «كان ابن خفاجة يقول الشعر حين تعرض له مناسبة، أو يلم به حادث، فيمدح ويرثي، ويؤدي على مضض بعض واجباته الاجتماعية، ومدائحه ومراثيه قليلة، ولكنها بالنسبة لقصائده طويلة، وبالنسبة لطبيعته متعبة، وكان أكثر ممدوحيه فقهاء وقضاة، وبعض أمراء، وهم في أغلب الظن رفاق صباه وأيام دراسته، أو ممن تولوا مناصب في مقاطعته، أو ممن جمعهم على غير عمد مجلس شراب، أو ممن هم على طريقته في طلب الملذات، والذين رثاهم أقل ممن مدحهم، فهناك قصائد ثلاث رثى بها الوزير ابن أبي ربيعة، ورثى أم الفقيه أبي أمية بقصيدة، ورثى بعضاً من إخوانه في مقطوعات بعضها قصير جداً.

وبينما كانت الأحداث في الشرق والغرب تغير مجرى التاريخ، فتدول الدول، وتندك العروش، وتتساقط التيجان، كان ابن خفاجة يسير في الحياة على منوال واحد، فلا يسمح بتغيير مجراها، وقد تتصل تلك الأحداث من حروب ومعارك بأحد ممدوحيه، فيذكرها مفتعلاً الحماسة»[(7)].

ومن بين مراثيه المتميزة، تلك القصيدة التي يرثي فيها بعض أصحابه الذين رحلوا، ويبدو فيها في غاية الحزن والتأثر لرحيلهم، بعد أن كانوا رفقته يتجولون مع بعضهم البعض في الحدائق والرياض الغناء، يقول:

فإذا مررت بمعهدٍ لشبيبةٍ أو رسم دار للصديق خلاء

جالت بطرفي للصبابة عبرة كالغيم رقَّ فجال دون سماء

ورفعتُ كفّي بين طرف خاشع تندى مآقيه وبين دعاء

وفي مدحه يُركز ابن خفاجة على العناصر التقليدية التي يمدح بها فيذكر الفطنة والبطولة والنسب والشهرة، مثل قوله عند مدح تميم:

ونالَ تميمُ سؤدد الكهل في الصّبي فتم تمام البدر في غُرَّة الشهر

وحلّت به الأملاك وهي شريفة محل ليالي الصوم من ليلة القدر

لقد حضرت الطبيعة الصحراوية التي تبرز مظاهر التقليد في شعر ابن خفاجة بشكل جلي، ولا شك في أن حضور الصحراء والبادية عند الشعراء الذين يعيشون في كنفها هو أمر طبيعي، وعادي نظراً«لهيمنة البداوة على حياة العربي ومحيطه، فالشاعر الجاهلي ابن الصحراء، وطبيعة البادية في هذا الشعر هي وليدة تجربة الإنسان الجاهلي معها، وقد تبين فيها الباحثون علاقات مختلفة، أما في العصر الإسلامي فقد خرج العربي من صحرائه واستقر بأقطار مختلفة، وعرف الطبيعة الخصبة وصور له القرآن الكريم الكثير من وجوهها، وحدد له علاقته بها ونظرته إليها، وهذا من شأنه أن يغير الخيال الشعري عند العرب، إلا أن التغيير لم يكن كلياً، فالشاعر العربي لم يعزف عن طبيعة البادية وحياة البداوة، وظلت الطبيعة الصحراوية وحضارة الصحراء حاضرة في الشعر لا يكاد يخلو منها ديوان، ولئن بدا الأمر بالنسبة إلى شعراء المشرق غير مثير - لقرب الصحراء منهم، ولإمكانية تردد بعضهم عليها، وإن هم كانوا يعيشون في الحواضر - فإن الأمر بالنسبة إلى الأندلس، قد لفت انتباه الباحثين، فأوعزوه إلى نزعة التقليد في الأدب الأندلسي، ورأى فيه بعضهم ظاهرة مقيتة في هذا الأدب، فالمحيط خصب وجنان، والشاعر الأندلسي يتزود في تركيب خياله الشعري من طبيعة البادية الصحراوية وحضارتها، والطبيعة الخصبة لم تحل محل الطبيعة الصحراوية الجذبة في القصيدة إلا نادراً، وهذه مفارقة تدعو إلى البحث في طبيعة

حضور عناصر الطبيعة الصحراوية في الشعر الأندلسي، والتساؤل عن وظيفتها ودواعيها ومدى مساهمتها في تكوين الخيال الشعري في الأدب الأندلسي»(8).

وقد وضع الباحث الدكتور سليم ريدان جدولاً أبرز فيه عناصر طبيعة الصحراء في ديوان ابن خفاجة، وقد توزع الحضور على العناصر الآتية:

- المكان: - اسم مشترك: 12، – اسم علم: 25

- الحيوان:16، النبات: 14، المناخ: 3 المجموع: 70.

فمجموع هذه العناصر - كما يرى سليم ريدان - لا يمثل من معجم«طبيعة الصحراء إلا القليل، وذلك بالنسبة إلى ما يمكن استخراجه من أي ديوان لشاعر جاهلي، فهذه العناصر هي ما ترسب في ذاكرة الشاعر الأندلسي من ممارسة الشعر الجاهلي وثقافة البادية في مشاغله الثقافية، لأن ابن خفاجة لم يعرف الصحراء بالتجربة، لكن هذه العناصر تتكرر في القصائد والقطع الشعرية، ويتكثف حضورها في مواطن دون أخرى، وهو ما يلفت الانتباه إليها في شعر ابن خفاجة، بالإضافة إلى ما يعضدها من عناصر حضارة الصحراء، ويحتل اسم المكان أكبر نسبة من هذا الحضور (أكثر من نصف المجموع) ويتميز اسم العلم منه بنسبة حضور مرتفعة (أكثر من ثلث المجموع)، وأكثر أسماء المكان العلم استعمالاً (نجد وتهامة واللوى) وأكثر أسماء الحيوان استعمالاً (الظبي)، وأكثر عناصر النبات تردداً: (الأراك، والعرار)، فكيف تتوزع هذه العناصر فيما بين النصوص؟ وما هي أنماط حضورها فيها؟

احتوى الديوان على إحدى وعشرين قصيدة مركبة منها عشرون تكثف فيها حضور عناصر الطبيعة الصحراوية، ويبدو من تكرار أرقام القصائد في الجدول أن حضور هذه العناصر يتراوح بين ثلاثة وثلاثة عشر عنصراً، ومعظم هذه القصائد قد احتوت أكثر من ثلاثة عناصر.

ويحتوي الديوان على خمس وستين قصيدة بسيطة لم تحضر عناصر طبيعة الصحراء إلا في اثنين وثلاثين قصيدة منها، وكان حضورها على النحو الآتي:

- ثمانية قصائد يتراوح فيها عدد هذه العناصر بين ثلاثة وستة

- ست قصائد احتوت كل منها عنصرين اثنين

- ثماني عشرة قصيدة احتوت عنصراً واحداً.

فحضور طبيعة الصحراء في القصيدة البسيطة أقل بكثير من حضورها في القصيدة المركبة.

أما القطع الشعرية فعددها في الديوان مائتان وثلاثون قطعة، لم يكن حضور طبيعة الصحراء إلا في ثلاث وعشرين منها أي العُشر، وتراوح عدد العناصر في ست منها بين اثنين وثلاثة عناصر، واحتوت كل قطعة مما بقي عنصراً واحداً.

ويبدو من كل هذه الملاحظات كأن حضور طبيعة الصحراء من مستلزمات القصيدة المركبة، بينما هو في القصيدة البسيطة والقطعة الشعرية عرضي ومحدود»(9).

وفي أحايين كثيرة نلفي ابن خفاجة يذكر «اللّوى في معرض تغنيه بمحاسن الطبيعة، حيث يظهر الغدير والظل فوقه كحسناء لها طرة فوق جبهتها تزينها، وهنا تشبيه عكسي، فقد شبه الغدير بالمرأة الحسناء، وليس العكس، وهو مما أبدع فيه ابن خفاجة، حيث يسبغ على الطبيعة صفات الأنوثة والدلال، فهذا الماء (بمنعرج اللوى) يهتز فوقه الأيك حين تحركه نواسم الريح الربيعية الذكية، وهنا وجدنا ابن خفاجة في معرض وصفه للطبيعة الموضوع الذي اشتهر به لا ينسى أن يرمز إلى حنينه لهذا المكان، وهذه الذكرى (بمنعرج اللوى)، ولعل هذا ما قصده حين علق

على إحدى قصائده في ديوانه بقوله:(إنها خيالات تنصب)، إذ يقول: (وأما أسماءً تلك البقاع وما انقسمت إليه من صفة نجد أو قاع فإنما جاء بها على أنها خيالات تنصب، ومثالا تتضرب، تدل على ما يجري مجراها، من غير أن يُصرح بذكراها، توسُعاً في الكلام، يكتفي بها دلالة عليها عبارة، ويستحسن إيماءة عليها وإشارة).

فأشار ابن خفاجة بذلك إلى أن الأماكن النجدية والحجازية قد تذكر في الشعر، ويراد بها أخرى، مما دل على تكثف الرمز فيها، يقول ابن خفاجة:

وإنّي وإن جئت المشيب لولعٌ بطرَّة ظلِّ فوق وجهِ غديرِ

فيا حبَّذا ماءٌ بمنعرجِ اللّو وما اهتزَّ من أيكٍ عليه مطيرِ

ونفحةِ ريحِ للرَّبيع ذكيَّةٍ ولمحةِ وجهٍ للشَّباب نضيرِ

إنه شيءٌ من جولان المشاعر وتطوافها في أرض الأجداد، حيث النقاء والصفاء، والحب العذري، والعذوبة، لقد اتخذت هذه الأماكن رمزيتها خارج نطاقها الجغرافي، وأصبحت بما تدل عليه من موطن قديم لحياة البادية عاشها الأندلسي بخياله عالماً رحباً، وذكرى حية، تحمل سحر الماضي البريء وعبقه، مما يجعل النهر يعود إلى ينبوعه ومصبه، ويتغنى بعراقة المشاعر ونقائها»[10].

وقد ارتبط الشوق والحنين في مجموعة من أشعار ابن خفاجة بالأرق، «الذي يستدعي التأمل في السماء، فيشوقه منها وميض الغمام ولمعانه من جهة ديار المحبوبة، وما تجدر الإشارة إليه أن شعراء الأندلس أكثروا في نسيبهم البدوي من وصف لمع البرق وإيماضه، وهو من خالص بيئة البداوة، لما في شوم البرق عند البدوي من وعد بهطول الأمطار، وسقيا الأرض، وقد أكثر الشعراء من وصف هذا البرق ولمعه في الشعر الجاهلي وما بعده، حتى في الأندلس حيث لم تكن البيئة في معظمها صحراء كما كانت في الجزيرة العربية، ولكن يظل للمطر عند العربي قيمته الكبيرة في النفس والشعر، ففيه معاني الخصب والنماء والعطاء، والإرواء والجمال، يقول ابن خفاجة:

أرِقتُ وَقَد نامَ الخَليُّ لنازحٍ تَشَظَّت حَصاةُ القَلبِ في حُبِّه صَدَعا

وَما شاقَني إلا وَميضُ غَمامَةٍ تَطَلَّعَ من نَجدٍ فَحَيّا اللوى رَبعا

أَشيمُ سَناهُ وَالسَماءُ مُغيمَةٌ كَما اغرَورَقَت عَيني لرُؤيَتِه دَمعا

فَذَكَّرَني وَاللَيلُ يَندى جَناحُهُ بِمَعطفه خَفقاً وَمَبسمه لَمعا

فابن خفاجة يبدأ قصيدته بمقابلة بين أرقه هو، ونوم صاحبه، وهو المعنى الذي يكثر في الشعر الجاهلي، وهو يعطينا العلة التي بسببها أرق هو ونام صاحبه الذي وصفه بالخليً، أي خالي القلب من الحب، بينما هو يأرق(لنازح) بعُد عنه، ويقصد به المحبوبة التي رحلت فصدعت قلبه، وهو يقول في وصف هذا القلب(حصاة القلب)، ولا يعني بذلك وصف قلبه بالقسوة أو الغلظة، وإنما أراد التعبير عن شدة الأسى والوجد الذي جعل هذا القلب يتصدع ويتشعب، ولذا، فهو يتطلع إلى السماء التي يشوقه منها لمع البرق وإيماضه، وقد قال(أشيم سناه والسماء مغيمة)على العادة البدوية فشم البرق أي نظر إليه أين يقصد وأين يمطر، وهو الأمر الذي كان البدوي يترقبه، وتحتاج إليه صحراؤه، وهو هنا يتطلع إليه ليروي ظمأ عشق فاض به، فشومه البرق، واستمطر الدمع شوقاً لمن يُحب»[11].

ثانياً: مظاهر التجديد في شعر ابن خفاجة: Deuxièmement: relooking dans le fils de cheveux Khafadje:

يلاحظ المتأمل في الشعر الأندلسي ذلك المزج بين الغزل وشعر الطبيعة، وهذا يعتبر من مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي، فهذا الأمر غير معهود بكثرة لدى الشعراء المشارقة، «ولم يكن الشاعر الأندلسي يُشرك الطبيعة

في حبه ولحظات هناءته فحسب، بل كان يشركها أيضاً في أوقات محنته بمصائب الدهر، وما ينزل به من الهموم.

ولعل بلداً عربياً لم يُكثر من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما أكثرت الأندلس، فدائماً تتراءى لشاعرها تلك العناصر أشخاصاً ناطقة تملك عليه حواسه، وتملأ عليه قلبه وعقله، لا مع الانتشاء فحسب، بل أيضاً مع العظة والتفكير في الزمن وحقائق الحياة والموت، على نحو ما يصور ذلك ابن خفاجة في استنطاقه الجبل بقصيدته المعروفة،فقد صور على لسان الج بل من آووا إليه من مجرمين عاصين وتقاة صالحين ورواحهم عنه وفناءهم وبقاءه وحده ملتاعاً، بل باكياً نادباً مصير الناس وما ينتظرهم من الموت والهلاك، وعلى هذا النحو يروعنا دائماً الشاعر الأندلسي في تصويره لعناصر الطبيعة وما يبث فيها من المشاعر والأحاسيس كما يروعنا شغفه بحسنها وجمالها، وكثيراً ما يعرضها في أصداف التشبيهات والاستعارات»[(12)].

ويتجلى التشخيص في الكثير من قصائد ابن خفاجة فهو على سبيل المثال يرى الشباب عبارة عن ماء رقراق:

من كل أزهر للنعيم بوجهه ماء يرقرقه الشباب فيسكب ويراه عبارة عن وجه باسم:

توضح في وجه الصبا منه مبسم وأشرق في ليل من الشيب كوكب

والشباب ريان أخضر:

وتملكته هزة في عزة فارتج في ورق الشباب الأخضر

والشباب مكان لا يبلغه النجم:

ولقد حللت مع الشباب بمنزل يرتد طرف النجم عنه كليلا

والشباب ظلال وارفة:

وشمس كلألاء الزجاجة طلعة وظل كريعان الشبيبة وارف

والشباب ريح رخاء:

وجدت به ريح الشباب لدونة ودون صبا ريح الشبيبة أزمان

والشباب عرش رفيع:

ألا ثل من عرش الشباب وثلما لشيب تصدى هدَّ ركني وهدماً[(13)].

ولا ريب في أن اتكاء الشاعر ابن خفاجة على عنصر الطبيعة في تصوير هواجسه ومشاعره وإبراز مختلف حالاته النفسية، كانت سبباً في تفوقه التعبيري، وإشراقاته الفنية، وإجادته في الوصف، حيث إن الكثير من قصائده تبرز فيها جملة من الصور والأخيلة التي تستمد جمالياتها الراقية، وشعريتها الطافحة من الطبيعة الأندلسية.

لقد أبدع ابن خفاجة أيما إبداع في وصف الطبيعة حتى سماه الأندلسيون«الجنان»، نسبة إلى جنان الأندلس التي أبدع في تصويرها، وقد علل هذه النزعة في شعره، بقوله:«إكثاره في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنة طائر، ما هو إلا(إما)لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطر عليها وجبلة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادح وبطاح عريضة وأرض أريضة، فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرك إلى القول أنسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كلف لا تكلفمع اقتناع قام مقام اتساع فأغناه عن تبذل وانتجاع». ومن قوله في وصف روض صباحاً:

وكِمامة حَذَرَ الصباحُ قِناعها	**عن صَفْحَةٍ تَنْدَى من الأزهارِ**
في أَبْطحٍ رَضعتْ ثغورُ أقاحِه	**أخْلافَ كلِّ غمامةٍ مِدْرارِ**
وحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحكٍ	**والظّلُ ينْضحُ أوْجُهَ الأشجارِ**

وتتراكم الصور في القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها الندية، وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدار والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، وألحاظه موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار.

وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر في عناصر الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التي يشترك بها مع غيره من العناصر، وتتراكم هذه الأحاسيس في شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، وهي ليست كثرة معان إنما هي كثرة تصاوير، وهي ليست عيباً بل هي حسنته وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساساً عميقاً، وهو إحساس تفرد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعاً، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم، وجعله إحساسه ينقل أوصافها إلى المديح والرثاء ومختلف الأغراض الأخرى .

وقد تساءل الدكتور جودت الركابي:ما هي المظاهر الطبيعية التي وصفها وما ميزاته فيها؟ وأجاب بقوله:«لقد وصف الشاعر (ابن خفاجة) الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها، وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة. ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور، وهكذا فقد كانت الطبيعة مستولية على حواسه، ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى، فتوثقت الصلة بينه وبينها، فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانيها، وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء.

ويمكننا أن نلخص ميزاته في وصف الطبيعة في العناصر الآتية:

1- اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها، فقد خاطب الشاعر الطبيعة وامتزج بها في بعض قصائده، واتصل بها اتصال الصديق بالصديق، ولجأ إليها واستمع إلى عظاتها في رحابها، وقصيدته في وصف الجبل خير شعره الذي يمثل هذه الخاصة.فقد أثار مرأى الجبل في نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث في هذا الطود المنتصب رعشة الحياة، فأخذ يستمع إلى عظاته وعبره، ويترجم له أفكاره وحسه، وبدا الجبل شيخاً وقوراً متململاً من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمر وتمضي ويطويها الزمن.

2- الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب، هي مسرح للهو ومقصف للشراب، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمر في جو الطبيعة المشرق الجميل، فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لنرى أن الطرب والرقص والغناء وسمات الحسن هي قوام هذا الوصف، وأن الخمر ظل ضئيلاً في هذا الوصف للطبيعة اللاهية:

صَقيلَةَ الأَنوارِ تَلوي عِطفَها ريحٌ تَلُفُّ فُروعها مِعطارُ

عاطى بِها الصَهباءَ أَحوى أَحوَرٌ سَحّابُ أَذيالِ السُرى سَحّارُ

وَالنورُ عِقدٌ وَالغُصونُ سَوالِفٌ وَالجِذعُ زَندٌ وَالخَليجُ سِوارُ

ومثل هذا الجو نجده في وصف هذه الأراكة الحسناء التي ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت في هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب:

وأراكة ضَرَبَتْ سَماءً فوقنا تَنْدَى، وأفلاكُ الكؤوس تُدارُ

حفَّت بدوحتها مجرَّةُ جدول نَثرت عليه نجومها الأزهارُ

وتستهوي الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها، فإذا بها في حلة بهية، وإذا الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة، وإذا الطبيعة التي تحيط بها مرحة مغردة، يخطب فيها الطير، وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً في أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب:

ألا أَفصَحَ الطَيرُ حَتّى خَطَب وَخَفَّ لَهُ الغُصنُ حَتّى اضطَرَب

فَمِل طَرَباً بَينَ ظِلٍّ هَفا رَطيبٍ وَماءٍ هُناكَ انثَعَب

وَجُل في الحَديقَةِ أُختِ المُنى وَدِن بِالمُدامَةِ أُمِّ الطَرَب

3- هذه الحياة التي شعت في الأمثلة السابقة تسم أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة.فهو يشخصها ويرى في جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط.ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة في شعره، فلنسمعه يصف شجرة منورة:

يا رُبَّ مائِسَةِ المَعاطِفِ تَزدَهي مِن كُلِّ غُصنٍ خافِقٍ بِوِشاحِ

مُهتَزَّةٍ يَرتَجُّ مِن أَعطافِها ما شِئتَ مِن كَفَلٍ يَموجُ رَداحِ

نَفَضَت ذَوائِبَها الرِياحُ عَشِيَّةً فَتَمَلَّكَتها هِزَّةُ المُرتاحِ

4- وفتنة الشاعر هي على الأغلب في الرياض والزهور ولهذا لقب بـ«الجنان»، ويعتمد على التشخيص - كما رأينا– والتشبيه بمحاسن المرأة في إظهار محاسن روضياته، وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها، ولكن كثيراً ما تظهر روضياته في إطار من اللهو على شكل نزهات في رحاب الطبيعة التي يبدع في تجسيمها أيما إبداع، على أن روضياته تتشابه فهي محصورة في إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارفة وحمائم تتداعى ونسمات عليلة وندامى يشربون ويغنون ويطربون.

5- وقد وصف ابن خفاجة الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله في وصف الفرس أبيات تتراءى فيها البراعة والجدة في التصوير، فيقول:

وَمُطَهَّمٍ شَرِقِ الأَديمِ كَأَنَّما	**أَلفَت مَعاطِفُهُ النَجيعَ خِضابا**
طَرِبٌ إِذا غَنّى الحُسامُ مُمَزِّقٌ	**ثَوبَ العَجاجَةِ جيئَةً وَذَهابا**
قَدَحَت يَدُ الهَيجاءِ مِنهُ بارِقاً	**مُتَلَهِّباً يُزجي القَتامَ سَحابا**

6- يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة، والحياة اللاهية في أحضانها، وكان في وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله. وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية، ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه، على أن الصنعة عنده أداة للتجميل، وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صوره فجاءت مقبولة.

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا، ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلي بها إلا في بعض قصائده ولاسيما قصيدته في وصف الجبل، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر، وهي في صورها ترضي لذة الحس وقلما تبعث في النفس لذة الروح.وشأن شاعرنا فيها كشأن باقي أعلام شعراء الطبيعة في أدبنا العربي، فهم لم يلجئوا في وصفها إلى إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء

الغربيون، وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفناً وصفياً تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابك فيه العواطف والأحزان إلا نادراً»[14].

وكما يرى الباحث محمد حسن قجة فابن خفاجة بلغت عنده صورة الحدائق ذروتها، ويصفه بسيد شعر الطبيعة في الأندلس، ويؤكد على أنه رغم أناقته في اختيار الألفاظ، لا يهمل المعنى المنتقى ببراعة الفنان ذي العين النفاذة والذوق الرفيع، ومن أبرز مظاهر التجديد عنده قدرته الفائقة على التشخيص، فهو يرى في قصيدته التي مطلعها:

وَصَقيلَةِ الأَنوارِ تَلوي عِطفَها ريحٌ تَلُفُّ فُروعَها مِعطار

يرى الحديقة فتاة بارعة الجمال تتلفت فتوزع عطرها الباهر مع النسمات، وهو يرى نور الضحى في الحديقة كأنه عقد في صدر الفتاة وأغصان الأشجار سوالفها، والجذع زندها،وجداول الماء سوارها،أما ظل الحديقة فتخاله لمى الثغر والضياء بجانبه بريق الأسنان الناصعة، إننا نقرأ الصورة الجميلة لابن خفاجة فلا ندري أهو يتحدث عن امرأة يشبهها بالحديقة، أم عن حديقة يشبهها بالمرأة، ولا يتوقف ابن خفاجة عند الحديقة بل يدخلها ويخص واحدة من أشجارها بوصفه الساحر المبدع[15].

لقد رزق «ابن خفاجة حساً مرهفاً، وذوقاً ممتازاً، وكانت عينه الباصرة، واهتماماته المتنوعة، وقدرته على النفاذ وسيلة قربت إليه الموصوفات، وسهلت دخول أشياء كثيرة في الحياة والكون إلى شعره، تلون ذلك الشعر وتصبغه، وتساعد على جلاء الفكرة، ولقد وصف الشاعر أشياء كثيرة مما يقع تحت نظر الإنسان أو في دائرة اهتمامه، وهو خصص للوصف قصائد ومقطوعات خاصة، إلى مجموعة من الأوصاف المختلفة لأشياء متنوعة من أدوات يستعملها أو يتزين بها، أو تقع في حيز الاهتمامات اليومية، كوصف السيف، والرمح، وكأس الشراب، ووصف الخمرة.

وصف الأشياء والأحوال، وبعض (الأشخاص) وبعض الحيوانات الأليفة أو المتوحشة، مما يتصل بالطبيعة الحية والطبيعة الصامتة.فهو مثلاً وصف السيف والرمح وأنواع السلاح، وأدوات الكتابة، ووصف المغني، والساقي، والبخيل،والأسود، ووصف الفواكه والخمرة بأنواعها، كما وصف الفرس، والكلب والذئب، والأسد، وضروب الطيور المختلفة وبخاصة(الحمام)منها، سواء كان ذلك الوصف مستقلاً أو في درج أغراض أخرى، تهيأت للشاعر ظروف متنوعة،من بيئة جغرافية خاصة، ووفرة في ذات اليد تسمح له بقسط من اللهو وافر دون الانشغال بالكد في سبيل العيش، وهو يتمتع بمواهب جمة من بينها: الحس المرهف، والذوق الفائق، والذكاء اللماح، وحب الحياة الجميلة.

إن ابن خفاجة - في الحقيقة - أحب الطبيعة الجميلة التي كانت (شقر) مثالاً رائعاً لها، وأسقط عليها مشاعره، وسكب فيها ذاته، وقد ظهر في شعره أثر ذلك، وبدا فيه أثر المحبة والألفة في الالتفات إلى نقاط الجمال والروعة، وفي الركون إلى الطبيعة بالطبيعة وإسقاط ما في نفسه عليها.ويحس قارئ شعره أنه ابن الطبيعة يشكو على كل حال، وفي قصائد ومقطوعات كثيرة مبثوثة في الديوان ظهر امتزاج الشاعر إليها، ويطرب لها، ويرى فيها أجمل ما في الوجود، وكان إذا استحلى أمراً حلا له في ظلالها وبين أفيائها، وإذا تغزل أو شهد مجالس الشراب، وإذا أنس أو استوحش كان ذلك بمشاركة الطبيعة، وقد أحس الشاعر بهذا الذي نسم به شعره في وصف الطبيعة، فأعلن عنه بوضوح وبساطة»[16].

ولم يلتفت الكثير من الدارسين إلى شعر الحنين عند ابن خفاجة، فقد درسوه بصفته شاعراً بارعاً في وصف الطبيعة، وأغفلوا شعر الحنين والغربة عنده، فقد كان ابن خفاجة شاعراً مضطرم العاطفة ومرهف الحس،وسريع

التأثر والانفعال، وكان محباً لوطنه (الأندلس) ولجزيرته (شقر)، كما ظل مرتبطاً بأصدقائه، وكثيراً ما يعود إلى أيام صباه وطفولته، وكما عبر عن هذا الأمر الباحث محمد رضوان الداية فقد كان مشغولاً بدائرتين اثنتين متشابكتين: دائرة المكان ودائرة الزمان، أما دائرة المكان فإطارها شقر والأندلس، وأما دائرة الزمان فإطارها الصبا وأيام الشباب، ويجتمع لديه الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الشبيبة، ويقترن بمجموعة من الذكريات، وهو يركز بشكل كبير على من فقدهم، وتميز شعر الحنين لديه بالرقة واللطافة، وبساطة المعاني وروعة نزعاتها الإنسانية، وقد كانت نزعة الحنين لديه نزعة عارمة، وشكلت عنصراً أساسياً من عناصر شخصيته الخاصة التي تتسم بالرقة.

وهذه الإشكالية التي تكتسي أهمية بالغة في شعره نبهت إليها الدكتورة فاطمة طحطح، وتساءلت في مستهل دراستها «لسنا ندري ما الذي حدا بمعظم الدارسين إلى اعتبار ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأول، الذي يتغنى بوصف الأزهار والرياض وصفاً مرحاً مشوقاً، نحن نوافقهم فيما يخص المقطوعات وبعض القصائد القصيرة التي نظمها أيام الشباب، يوم كان يعتبر الشعر زينة وحلية، لكنه عاد فقرر في المقدمة أن أهم ما يلح عليه هو: التلذذ بذكر الديار، وبكاء المعاهد، والحنين إلى الشباب، وقد فعل ذلك في قصائد مطولة تشكل القسم الأكبر من ديوانه، وفيها وصف الطبيعة بوصف آخر مغاير ورآها رؤية مختلفة عن الأولى.

لكن أحداً لم يهتم بهذا الموضوع، الذي يلح عليه هذا الشاعر، وذكر سبب تعلقه به، واستشهد عليه بأمثلة عديدة من شعره، فابن خفاجة يأبى إلا أن يعتبر نفسه شاعر حنين وندب وبكاء لمعاهد الشبيبة، ومع ذلك يأبى الدارسون إلا أن يجعلوه شاعر الأطيار المغردة، والأزهار المتفتحة والرياض الضاحكة»[17].

وقد لاحظ الدكتور يوسف عيد أن«صورة الليل تتكرر في معظم قصائده الغزلية وتكاد جميعها تتشابه وتقترن بصورة الصباح، فلا تفرق بين الأسود والأبيض إلا حسياً والنور والظلمة ذلك أن ابن خفاجة كان في غزله وصفياً بعيداً عن الخيال الجامح قريباً من الفطرة ميالاً إلى المحسوس المعاش والمألوف.

وعناصر الطبيعة لا تنتهي في شعر ابن خفاجة، فهناك الطيور والبرق والجو والشمس والبدر وغيرها. وقد استطاع ابن خفاجة أن يصور حدائق الأندلس بعيون الحسناوات اللواتي تغزل بهنز فأصبحت قصائده بمثابة وثائق تاريخية نقلت لنا بأسلوب خاص ومميز الجو الغزلي المطعم بمختلف أنواع الجواهر الطبيعية والوصفية وثقافة البيئة الأندلسية، فتجلت هذه الوثائق والصور في الاستعارات التي أغدقها في شعره، ومزجه في كل بيت أكثر من عنوان بلاغي، فنحن نراه في بيت واحد يشخص ويقابل، ويوازن، وفي بيت يليه يراعي النظير، ويبرز لنا حركية جميلة داخل البيت تجعلنا نسمو معه بالشعور الذي يريد إيصاله، فبقوله مثلاً:

له نظرٌ فاتنٌ، فاترٌ يحلّ قوى عزمتي ضعفه

نرى في هذا البيت كيف أنه قابل بين القوة والضعف، وكيف أنه استعار للنظر اسم الفاعل(فاتر)المختص بالمياه فقرب الصورة ما بين ماء العين في نظرة الحبيب والماء الفاتر.

وفي بيت آخر نلاحظ كيف أنه يراعي النظير بحشد مفردات تدخل في الحقل المعجمي للكتابة بقوله:

أطلّ وقد خطّ في خدّ من الشعر، سطرٌ دقيق الحروف

من خلال دراسة قصائد ابن خفاجة الغزلية يستطيع الدارس أن يخرج بأفكار كثيرة تتمحور حول هذا الغزل الغني والمعلق بالروائح الذكية للطبيعة الأندلسية، وبالجو المطعم بالمنطق الفلسفي والمنحى الديني والحكمي الذي ظهر أيضاً من خلال أبيات القصائد الغزلية»[18].

وحضور الطبيعة الخصبة في ديوان ابن خفاجة،- وفق منظور الدكتور سليم ريدان– لم يخرج عن ثلاثة أنماط رئيسة:

«1- أن تكون موضوعاً من مواضيع القصيدة، شأنها شأن الغزل والرحلة وموضوع الخمر، وهو قليل.

2- النمط الثاني من حضور الطبيعة الخصبة في القصيدة هو أن تكون إطاراً يتلاءم مع الحال الشعرية التي يرسمها الشاعر، فتبدو الطبيعة يانعة مبتهجة في حالة الفرح متجهمة في حالة الحزن وهو قليل في القصائد المركبة. فمن ذلك أن تبدو الطبيعة على هيئة كأنما تستمدها من صفات الممدوح أو هي مبتهجة بقدومه.

3- أما النمط الثالث من حضور الطبيعة الخصبة في القصيدة فأن تكون أسلوباً من أساليب البلاغة كالتشبيه والاستعارة، وهو أكثر الأنماط الثلاثة وجوداً»[19].

لقد كان ابن خفاجة شديد الارتباط بواقع بيئته الأندلسية وهذا الارتباط يعد مظهراً من مظاهر التجديد لديه، فالشعر باعتباره تعبيراً عن الهواجس الذاتية كان لصيقاً بتجاربه النفسية، وقد استطاع «ابن خفاجة أن يمازج بين طبيعة الصحراء وطبيعة الأندلس، فتخصب الأولى أحياناً وينال الإبداع الشعري منها شعرية القدم، ويلتقي ما للشاعر بالتجربة بما له بالثقافة، ويلتحق الفرع بالأصل، ويتحقق الانتماء إلى الأمة بالاتصال بأرضها في مستوى الفن وإن هو تعذر في مستوى الواقع.

لكن الطبيعة الخصبة قد هيمنت على تجربة ابن خفاجة الشعرية عامة فاستقلت موضوعاً موحداً في قصائد وقطع، وابن خفاجة لم يتفرد بذلك، فقد سبقه إليه شعراء مشارقة أبرزهم الصنوبري، فاشترك معهم في الكثير من أساليب التعامل الفني مع الطبيعة، لكنه اختلف عنهم في رسم الصورة الكلية فكان موصوفه غير موصوفهم، ولو كان واحداً، ذلك لأنه تميز عنهم في أهم مصادر الإلهام، وهو طبيعة أندلسية خصبة تختلف في كثير من خصائصها عن طبيعة المشرق العربي، وأهم هذه الخصائص غزارة المياه وكثافة الخصوبة، واعتدال المناخ، وهو ما جعل صورة الأندلس ترتسم كلياً في خيال الشاعر في صورة الجنة، وتسربت إلى خيال الشاعر في تشخيصه الطبيعة ملامح ثقافة أندلسية قديمة هي التي أنجبت بعض خرجات الموشح. فتجاوز بكل ذلك تعامله الفني مع الطبيعة في حالات عديدة أسلوب التشخيص لدى شعراء المشرق إلى رؤية كلية تتوحد فيها الطبيعة بالإنسان لانتظامها في نظام كوني واحد يقوم على مبدأين:السكون والحركة.

أما السكون فقد أدركه الشاعر في الجبل عظمة وصموداً وخلوداً،وفي القمر وظلام الليل وفي ما أمدته به الثقافة من معاني سكون الصحراء،وأما الحركة فتتجسم في البحر واضطراب أمواجه وأعماقه والنهر وما حوله من خصوبة يداخلها نمو الحركة في أدق دقائقها، ويجري فيها كما في الإنسان ما يشبه ما يسميه برغسون بالاندفاع الحيوي، ويرسمه ابن خفاجة بأساليب الصورة الشعرية من خلال التشابيه والاستعارات المتراكمة والمتراكبة التي تنسب ما للطبيعة إلى الإنسان، وما للإنسان إلى الطبيعة.

فبين الإنسان والطبيعة علاقة قُربى وتماثل في الوجود، فما يصدر عن الإنسان يصدر عن الطبيعة، وما كمن فيه بالفطرة يكمن فيها ومآلها مآله، لكن لغته غير لغتها، وإنما الشاعر عن طريق التشخيص والأساليب يقرب ما بين الطبيعة والإنسان وينقل أحوالها في لغته فيترجم عنها، ويفصح عما في نفسه، كذا كان شأن ابن خفاجة مع الجبل والقمر وعناصر الطبيعة الخصبة حول النهر والشاب السابح فيه، إنه اللقاء بين الطبيعة والإنسان في رحاب العشق والعبادة والحياة بما لا نكاد نجد له مثيلاً لدى شعراء المشرق»[20].

وبالنسبة إلى الأوزان الشعرية والأغراض التي أكثر ابن خفاجة من طرقها، فالبحور المستعملة عنده في غالب الأحيان هي: الطويل والكامل، ويمثل المدح القسم الأوفر من إنتاجه الشعري، ويشمل عشرين قصيدة تتفاوت كمية حيث تبدأ من عشرين بيتاً وتصل إلى تسع وتسعين، والغرض الثاني الذي طرقه هو الرثاء، إضافة إلى الزهديات التي لم يتوسع فيها حيث لايلفي الدارس إلا سبع قصائد، ومقطعات شعرية مختلفة«إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أن من العسير أن يستقل كل فن بنفسه، فكثيراً ما نعثر على أبيات من الشعر الزهدي خلال المراثي، ومن جهة أخرى ينبغي أن نلاحظ أن ابن خفاجة تجنب كل شعر يذكرنا بما أنشده في شبابه.

ويتجلى لنا ابن خفاجة شاعراً كلاسيكياً تقليدياً من ناحية المعاني، ومن ناحية الإطار الذي صاغ فيه قصائده– ولكن هناك ميزة تميزه عن غيره من الشعراء السابقين:فالصور والتشبيهات والاستعارات مأخوذة بأسرها من الطبيعة–وإنا لنشعر عند ابن خفاجة برغبة في المجيء بما هو جديد طريف، واستمرار ورود الطبيعة في شعره يدل على أنه ليس ثمة حد فاصل بين المرحلتين اللتين أشرنا إليهما من قبل.لقد بقي ابن خفاجة متمسكاً بالطبيعة تمسكاً شديداً، وزودته الطبيعة بكمية - تكاد لا تنفد–من صور متنوعة يانعة[21]، وقد نوّع في معالجتها، وجمع بين التماثل والتميز، ومازج بين المشرقية والأندلسية.

خاتمـــة

لقد اتضح من خلال هذا البحث أن اتجاهين رئيسين يعبران عن وجودهما في شعر ابن خفاجة:

الاتجاه الأول وهو الذي ركز فيه على الجوانب البدوية، والطبيعة الصحراوية، وهو الذي يوصف بالاتجاه التقليدي، أما الاتجاه الثاني فهو الذي عبر فيه بدقة عن البيئة الأندلسية، وحضرت من خلاله عناصر الطبيعة الخصبة، وهو الاتجاه الذي يُستدل به لدى حديث الكثير من الدارسين عن التجديد.

فالاتجاه البدوي يُبرز الأثر المشرقي والتقليد، والاتجاه الحضري يجسد التجديد والارتباط بالبيئة الأندلسية، وقد اختلف تناول البداوة في وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي وفقاً لاختلاف تجربة الشعراء، وانعكس ذلك الاختلاف على مستوى اللغة والأساليب، والصور والأخيلة، ففي بعض الأحيان نلاحظ غلبة التشبيهات البدوية التي ترتبط بطبيعة الصحراء، وفي بعض الحالات تختفي الصور البدوية خلف التشبيهات والصور الحضرية التي تعكس البيئة الأندلسية، فالسمات البدوية–كما تذكر فوزية العقيلي– عبرت عن التشبع بأجواء العروبة، وديارها، وقديمها، وتراثها، وثقافتها، ولغتها، فقد كان الموروث البدوي يمد الشعر الأندلسي بأجنحة غير مرئية، تحلق به في فضاء شعري أوسع وأرحب، لأن الثقافة والموروث هما اللذان يعطيان الوقود للموهبة الشعرية، وقد كان الشعراء الأندلسيون يعتزون بتأثرهم بسابقيهم والوفاء لتراثهم، كما أشار إلى ذلك ابن خفاجة في خطبة ديوانه، عندما ذكر تأثره بشعر الرضي ومهيار الديلمي، وعبد المحسن الصوري، والمتنبي–وما حذا حذوه وأخذ مأخذه–وهو في معظمه شعر بدوي.

والشعر كله مبني على التأثر بالقديم، والأفضلية كانت في قدرة الشاعر على أن يصوغ المعنى القديم أو المتداول صياغة جيدة، وقد كانت الصور البدوية، والعناصر البدوية، والحياة البدوية، متغلغلة في اللاشعور الثقافي العربي لدى شعراء الأندلس.

ولذا، كانت البداوة اتجاهاً وفيضاً غزيراً ممتداً في معظم الشعر الأندلسي، إما أن تأتي ظاهرة وحاضرة بقوة، وإما أن تأتي خافتة الصوت من خلال ألفاظ، أو عبارات، أو إشارات بدوية، وإما أن تأتي متداخلة تداخلاً ثرياً غنياً

في الصور الشعرية الأندلسية، يعبر فيها الشاعر عن شخصية أندلسية، كونتها البداوة، وعاش صاحبها في كنف الحضارة، فقد كان الجمع بين الموروث القديم والبيئة التي يعيش فيها الشعراء حالة خاصة في الشعر الأندلسي.

وقد اتخذنا ابن خفاجة نموذجاً لتوضيح بعض مظاهر التقليد في شعره، إضافة إلى تجلية بعض العناصر التي تبرز التجديد من خلال تعبيره بدقة عن الطبيعة الأندلسية في مجموعة من مقطوعاته الساحرة، وتركيزنا على ابن خفاجة لا يعني أنه الشاعر الوحيد الذي جمع بين التماثل والتميز، بل إن أغلب شعراء الأندلس ما زجوا في وصفهم للطبيعة بين التقليد والتجديد، وهذا دليل على علاقتهم الوطيدة بالمشرق العربي، إضافة إلى التصاقهم بالبيئة الأندلسية، فجمعوا بين المشرقية والأندلسية.

الهوامش:

1- د.جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط 02، 1966م، ص 101.

2- د.عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، د، ت، ص 44 - 45.

3- د.حنان إسماعيل أحمد عمايرة: الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي، مقال منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد:27، العدد الأول والثاني، 2011 م، ص257-258.

4- د.منجد مصطفى بهجت: ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي، مقال منشور في مجلة حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، الدوحة، قطر، العدد التاسع عشر، 1417هـ/1996م، ص 69- 70 .

5- د.حنان إسماعيل أحمد عمايرة: الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي، مقال منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد:27، العدد الأول والثاني،2011 م، ص 229.

6- عبد الرحمن جبير: ابن خفاجة الأندلسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، لطبعة الثانية1401هـ/1981م، ص 21.

7- د.سليم ريدان: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي–من القرن الرابع إلى السادس هجرياً– منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،ج:01، تونس،2001م، ص 285.

8- د.سليم ريدان: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي–من القرن الرابع إلى السادس هجرياً– منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،ج:01، تونس،2001م، ص 289-290.

9- د.فوزية عبد الله العقيلي: الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م، ص 195 وما بعدها.

10- د.فوزية عبد الله العقيلي: الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر،الطبعة الأولى،1433هـ/2012م، ص 225 وما بعدها.

11- د.شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1977م، ص 158 .

12- عبد الرحمن جبير: ابن خفاجة الأندلسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان،الطبعة الثانية، 1401هـ/1981م، ص 97.

13- د.شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات–الأندلس–، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1989م، ص 320.

14- د.جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص 106 وما بعدها.

15- محمد حسن قجة: محطات أندلسية:دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985مً، ص 123-124.

16- د.محمد رضوان الداية: أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، سورية، 1981 م، ص 207.

17- د.فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 1993م، ص 207.

18- د.يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، 2006م، ص 694.

19- د.سليم ريدان: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي-من القرن الرابع إلى السادس هجرياً- منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، ج:01، تونس، 2001م، ص 319.

20- د.سليم ريدان: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي - من القرن الرابع إلى السادس هجرياً- منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، ج:01، تونس،2001م، ص 319 - 320.

21- د.حمدان حجاجي: حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1982م، ص 126.

22- د.فوزية عبد الله العقيلي: الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م، ص 97.

المصادر والمراجع:

1- أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي، د.محمد رضوان الداية: مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، سورية، 1981م.

2- الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي، فوزية عبد الله العقيلي مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 01، 1433هـ/2012م.

3- بلاغة العرب في الأندلس، د.أحمد ضيف، مطبعة مصر، 1342هـ/1924م.

4- دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، د.يوسف عيد، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، 2006 م.

5- دراسات في الشعر الأندلسي، د. علي الغريب محمد الشناوي، منشورات مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 01، 1424هـ/2003م.

6- حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، د.حمدان حجاجي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 02، 1982م.

7- حياة الشعر في نهاية الأندلس، د.حسناء بوزويتو الطرابلسي، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ومركز النشر الجامعي، تونس، ط 01، 2001م.

8- محطات أندلسية، دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، محمد حسن قجة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط 01، 1405هـ/1985م.

9- ملامح الشعر الأندلسي، د.عمر الدقاق، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، د، ت.

10- المعجم الأدبي، د.جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 02، 1984.

11- المعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي، دار الكتب العلمية، ج 01، ط 01، بيروت، لبنان،1993م.

12- معجم مصطلحات النقد العربي القديم، د.أحمد مطلوب مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 01،2001م.

13-معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس مكتبة لبنان، بيروت، ط 02، 1984م.

14-عصر الدول والإمارات – الأندلس - ، د.شوقي ضيف: دار المعارف، القاهرة، مصر، 1989م.

15-في الأدب الأندلسي، د.جودت الركابي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط 02، 1966م.

16-فصول في الشعر ونقده، د.شوقي ضيف دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 02،1977م.

17- الشعر الأندلسي: بحث في تطوره وخصائصه، غرسية غومس (G.GOMEZ): ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، 1956م.

18-تاريخ الأدب العربي، د.عمر فروخ، ج 04، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 03، نيسان/أبريل 1992م.

19-ابن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمن جبير، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط 02، 1401هـ/1981م.

20- ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي-من القرن الرابع إلى السادس هجرياً-، سليم ريدان، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،ج: 01، تونس، 2001م.

21- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، د.فاطمة طحطح، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 1993م.

- **المجلات:**

1- مجلة جامعة دمشق المجلد:27، العدد الأول والثاني، 2011 م.

2- مجلة دراسات أندلسية، مجلة علمية مختصة محكمة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية، العدد:11، رجب 1414هـ/ جانفي1994م.

3- مجلة حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، الدوحة، قطر، العدد التاسع عشر،1417 هـ/1996م.